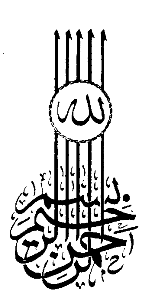
رسائل الى الشباب المسلم
( ٩ )

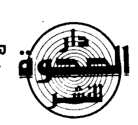
# عيون التراث وذخائر التاريخ

أنور الجندي



عيون التراث وذخائر التاريخ

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م




دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة
الإدارة: ٧ ش السراى - أول المنيل ت . فاكس: ٩٨٧٩٢٤
الفرع: حدائق حلوان - بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

## اللغة العربية والسياسة الشرعية والتاريخ الإسلامى

إن نظرة الشباب المثقف المسلم إلى التراث الإسلامى يجب ألا تتوقف عند الصورة الظاهرة ، المتمثلة فى مجلدات من الأوراق الصفراء ، سماها بعض خصوم الإسلام ( أكفان الموتى ) يتداولها بعض الباحثين من أجل ضبطها وإحيائها ، وتصحيح بعض كلماتها أو شرحها ، فإن هذه النظرة جد ضيقة، وربما كانت الصورة مستهدفة من أعداء الإسلام ،فى محاولة للاستهانة بهذا التراث الضخم ،الذى تتسع آفاقه اتساعا لايستطيع الإلمام به إلا قليل من العارفين بمعانيه الحية ذات العطاء الكبير . ولعلنا لونظرنا إلى أبعاد هذه الصورة ؛ لوجدنا مجموعة من الحقائق يمكن أن تملأ قلوبنا بالثقة فى عظمة آثار هذه الأمة الإسلامية ، التى استمدتها من قرآنها وسنتها ولغتها ، وعلومها التى جرت كلها حول القرآن الكريم لكشف منهجه الربانى العظيم .

**١ـ اللغة العربية :**

ولنلق نظرة سريعة إلى اللغة العربية التى حملت هذا الكتاب الخالد إلى البشرية كلها ، فنجد أنها أضخم اللغات ثروة وأصولا ومقاطع وحروفا وتعبيرات ، حتى إنها تفوق اللغة الإنجليزية فى عدد الأصوات ، إذ بها ٢٨ حرفا غير مكررة ، فى حين أن اللغة الإنجليزية بها ٢٦ حرفا ومنها مكرر، وفى اللغة العربية حروف لأصوات لاتوجد فى كثير من اللغات الأخرى مثل الحاء والخاء والضاد والطاء والعين والغين والقاف وهناك أعجب من هذا .

قال الخليل بن أحمد فى كتاب العين :

إن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل (٤١٢/ ٣٠٥ / ١٢ ) كلمة ، ولعله أراد ما يمكن تكوينه بتركيب أحرف الهجاء على كل شكل من الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى ، وقال الحسن الزبيدى :

إن عدد الألفاظ العربية (٤٠٠ / ٦٩٩/ ٦ ) لفظ لايستعمل منها إلا (٥٦٢٠) لفظا والباقى مهمل .

وقد كان الإسلام عاملاً من عوامل انتشار اللغة العربية التى استطاعت أن تسيطر سيطرة كاملة على عديد من الأقطار ، بعد أن خرجت من الجزيرة العربية واتجهت إلى فارس والهند والشام ومصر،وعبرت البحار إلى إفريقيا الجنوبية فالأندلس ، واستطاعت أن تحتفظ بفصاحتها ووحدتها وكيانها رغم اختلاطها بلغات أخرى ، بل استطاعت أن تزيح هذه اللهجات ، وأن تملى لغتها على هذه الأمم. وفى الشام ومابين النهرين ، سادت العربية على اللغات السريانية والكلوانية والنبطية والآرامية ، وفى مصر سادت العربية وحلت محل اليونانية والقبطية والسريانية قبل أن ينقضى القرن الأول الهجرى ، فلما بلغت القرن الثالث الهجرى دخلت الكنائس القبطية وكانت لغة الوعظ والدين ، وبها كتب الإنجيل ولـم يلبث الأسقف ساروريس بـن المقـفع بمعاونة نـفر مـن رجـال الدين الأقباط ، أن سارع إلى نقـل ما وجده من الكتابات القبطية واليونانية إلى اللغة العربية .

وقد انتشرت الحروف العربية بانتشار الحضارة الإسلامية وكتبت بها اللغات التركية والفارسية والأوردية والأفغانية والكردية والمغولية والبربرية والسودانية والأبحية والساحلية ، كما كتبت بها لغة أهل الملايو، ودخلت اللغة العربية أوربا حين فتح العرب صقلية والأندلس ، وتـردد صـداها فـى الأنحـاء الجنـوبية ، ولايزال فى اللغتين الأسبانية والبرتغالية كثير من الكلمات المشتقة من العربية وقد جمعها العلامتان دوزى وانجلسمان فى كتاب سمياه ( مفردات الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية ) طبع فى ليون ١٨٦٩م ، ثم دخلت الكلمات الأوربية إلى لغات أوربية أخرى كالفرنسية والألمانية والإنجليزية ، وقد حوت اللغة الإنجليزية أكثر من ألف كلمة عربية ، وهناك ٢٧٠ كلمة من أصل عربى تستعمل فى اللغة الإنجليزية يوميا منها كلمة : أمير أو أمير البحر الإنجليزية التى أصبحت ( أميترال ) .

ولقد كان أساس نشأة النحو العربى ترجع إلى القرآن الكريم والرغبة فى صيانته من اللحن والخطأ ، فقد روى أن أبا الأسود الدؤلى المتوفى عام ٦٩هـ وهو أول من وضـع علم النحـو بالبصرة سمـع قـارئـاً يقرأ قـوله تـعالى : ﴿ **أن اللّه برىء مـن المشـركين ورسوله** ﴾ [ التوبة : ٣ ] بكسر اللام فى : ﴿ **رسوله** ﴾ والصحيح هو ضم اللام ، فكان هذا الخطأ من القراءة وما تبعه مـن قلب المعنى مـن الأسباب الرئيسية التى دفعت أبا

الأسود الدؤلى إلى وضع أسس النحو العربى .

وقد ظل ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم قائما ، وكان الهدف الأساسى من دراسة اللغة العربية هو فهم الدين فهما كاملا والوقوف على مفاهيمه باعتبارها وسيلة إلى فهم الأحكام الشرعية، وقد أكسب هذا الارتباط تلك اللغة نوعا من القداسة التى للقرآن ، وأصبح الحفاظ عليها حفاظا على القرآن والتفريط فيها تفريطا فى القرآن .

وكان من نتيجة هذا الارتباط كثير من الدراسات النحوية واللغوية المتعلقة بالقرآن الكريم منها :

( إعراب القرآن ) للنحاس (٣٣٨هـ ) .

(معانى القرآن ) للفراء ( ٧٠٧هـ ) .

( معانى القرآن وإعرابه ) للزجاج ( ٣١١هـ ) .

وألف الثعالبى : ( فقه اللغة ) وضمنه طوائف من الكلمات مصنفة بحسب مد لولاتها ، ومن فرسان علم اللغة :

١ــ الخليل بن أحمد صاحب معجم العين : أقدم تصنيف للأصوات اللغوية عند العرب .

٢ــ سيبويه : قدم تحديداً لمخارج الأصوات وصفاتها ومايزال هو الأساس الذى قامت عليه دراسة الأصوات فى العصر الحديث .

٣ــ ابن جنى : صاحب كتاب ( سر صناعة الإعراب ) .

وقد محص السلف النحو والصرف وكانوا صادقين فى محاولتهم خدمة لكتاب الله تبارك وتعالى وتيسير قراءته ، وكانت محاولتهم متسمة بالأصالة ، فهم لم ينقلوا نحو اليونان أوالفرس أو الهنود ، وكانت محاولتهم قبل عصر النهضة.

**٢ــ العلوم السياسية :**

ظل التغريبيون ينكرون أن للإسلام فكراً سياسياً وأن الذى كان عندهم منقول من اليونان أو من الفرس ، حتى اختار الله تبارك وتعالى لهذه الأمة من رد مقولتهم ،

وكشف عن فسادها ، وكشف عن منهج إسلامى مستقل فى الحكم وسياسة الدولة استمدها علماء الإسلام من السنة والأحاديث النبوية الشريفة وهى لاتكتفى بأن تكشف عن استقلالية منهج الإسلام السياسى ، بل لقد كشفت عن أن كثيراً من النظريات السياسية الحديثة ، قد وردت فى الفكر الإسلامى وأنشأها الفقهاء المسلمون أساسا ، وأن الفقهاء الأوربيين جاؤوا مرددين لها ، كما دحض علماؤنا المعاصرون وفى مقدمتهم الدكتور ضياء الدين الريس فى كتابه ( النظريات السياسية الإسلامية )القول الضال الباطل ، الذى ردده المستشرقون المبشرون وكبير أعمدتهم من أن الإسلام لم تكن له نظريته السياسية ، وأنه استمدها من الفكر اليونانى ، وأعلن الباحثون عن أن الإسلام إنما استمد نظريته السياسية من القرآن الكريم نفسه، وليس من مصدر آخر ، فالماوردى والشافعى والغزالى والجوينى وابن حزم قد اشتركوا فى رسم خطوط النظرية السياسية فى مختلف مجالات الإمامة والولاية والحكم والعقد السياسى ، وهكذا ومن خلال (الأحكام السلطانية ) للماوردى ، ( وإحياء علوم الدين ) للغزالى ، و(السياسة الشرعية ) لابن تيمية ، و( أعلام الموقعين ) لابن قيم الجوزية ، و( المقدمة ) لابن خلدون نجد رجال الفقه الدستورى الإسلامى .

وغير خاف أن الإسلام أعلن حقوق الإنسان قبل الثورة الفرنسية والأمم المتحدة بأكثر من أربعة عشر قرنا . وفى مقدمتها حرية الاعتقاد ﴿ **لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾ [ البقرة :٢٥٦ ] ويقرر الدكتور جريفنبى ـ جامعة ميلانو ـ: إن أول كتاب صنف فى الفقه الإسلامى هو ( مجموع الفقه ) تصنيف الإمام الشهيد ابن الحسين زيد بن زين العابدين على أبى الحسن بن على بن أبى طالب : ظهر الكتاب فى أيام هشام بن عبد الملك عام ١٢٢هـ وأن الدولة الإسلامية عرفت ( المصطلح الشريف ) الذى يسمى ( البروتوكول ) كما عرفت نظم التمثيل السياسى بعلائقه الخارجية والمفاوضات السياسية والمطابقات الدبلوماسية والاستقبالات المملوكية التى كانت تجرى بين الدول الإسلامية والدول الأخرى ، وقد انتهى إلينا فى هذا الموضوع أثران فى منتهى الأهمية والطرافة : أولهما : كتاب ( التعريف بالمصطلح الشريف ) لشهاب الدين ابن فضل العمرى المتوفى ٧٤٩هـ ، وصاحب ( الموسوعة الجغرافية ) الشهيرة ، و(مسالك الأبصارفى ممالك الأمصار ) . والثانى : كتاب ( صبح الأعشى ) لأبى العباس

القلقشندى المتوفى ٨٢١ هـ ، وهو موسوعة عظيمة حافلة ، حيث كان القلقشندى على رأس ديوان الإنشاء والرسائل أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وفى مجال السياسة الشرعية ظهر كتابان فى موضوع الأحكام السلطانية أحدهما لأبى الحسن على بن محمد ( الماوردى ) الشافعى ، والآخر: لأبى يعلى محمد بن السعيد الفراء الحنبلى ، والكتابان يبحثان موضوع السياسة الشرعية ويتبادلان أبحاثاً متشابهة ، ويعالجان مشاكل واحدة ويتقاربان فى زمن ظهورهما ( القرن الخامس الهجرى ) . يقدم الماوردى الأحكام على مذهب الشافعى أما أبو يعلى فيقدمها على المذهب الحنبلى .

وكان العصر عصر انحلال سياسى فى الدولة الإسلامية ، إذ تجزأت المملكة إلى دول صغيرة ، ولم يبق بيد الخليفة غير بغداد وأعمالها ، وكان منصب الخليفة نفسه فى يد القواد من الترك والديلم .

ومما يدعو إلى الاستغراب حقا ، أن تكون عصور الفوضى السياسية هى أخصب العصور الإسلامية فى الإنتاج الفكرى ، من علوم وآداب وفنون ، وللماوردى بالإضافة إلى كتاب ( الأحكام السلطانية ) كتاب ( قوانين الوزارة ) الذى راجعه أخيرا الدكتور فؤاد عبد المنعم .

**٣ـ مصطلح التاريخ علم إسلامى :**

استمد مؤرخو المسلمين قاعدته من منهج الحديث الشريف (مصطلح الحديث ) يقول الدكتور أسد رستم : لما أردت تدريس علم المثورولوجية وهو ما أريد أن أسميه (مصطلح التاريخ ) اضطررت أن أرجع إلى مصطلح الحديث فى الاستعانة بمصطلحات المحدثين ، فأكببت على مطالعة كتب المصطلح وجمعت أكثرها وكنت كلما ازددت اطلاعا عليها ازداد ولعى بها وإعجابى بواضعها . ومن أهم ماوجدت فيها نسخ قديمة من رسالة القاضى عياض فى علم المصطلح كتبها ابن أخيه سنة ٥٩٥ للهجرة ، فلما درستها وجدتها من أنفس ماصنف فى موضوعها ، وقد سما بها القاضى عياض إلى أعلى درجات العلم والتدقيق . والواقع أنه ليس بإمكان أكابر رجال التاريخ فى أوربا وأمريكا أن يكتبوا أحسن منها فى بعض نواحيها ، وذلك بالرغم من مرور سبعة قرون

عليها .كان ماجاء بها من مظاهر الدقة فى التفكير والاستنتاج تحت عنوان : تحرى الرواية والمجىء باللفظ يضاهى أدق ماورد فى الموضوع نفسه فى أهم كتب الفرنجة فى ألمانيا وفرنسا وأمريكا وبلاد الإنجليز ، والواقع أن المثورولوجية الغربية التى تظهراليوم لأول مرة بثوب غربى ليست غريبة على مصطلح الحديث بل تمت إليه بصلة قوية .

فالتاريخ دراية ورواية ، كما أن الحديث دراية ورواية والقواعد التى وضعها الأئمة منذ قرون عديدة للتوصل إلى الحقيقة فى الحديث تتفق فى جوهرها واتجاهها والأنظمة التى اكتشفها علماء أوربا فيما بعد فى بناء علم المثورولوجية .

ولو أن مؤرخى أوربا فى العصور الوسطى والعصور الحديثة اطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين لما تأخروا فى تأسيس هذا العلم إلى أواخر القرن الثامن عشر ، وبإمكاننا أن نصارح زملاءنا فى الغرب ، فنؤكد لهم أن مايفاخرون به فى هذا القبيل نشأ وترعرع فى بلادنا ونحن أحق الناس بتعليمه والعمل بأسسه وقواعد ه .

ويركز الدكتور أسد رستم على عدة قواعد أهمها :

أولاً : العدالة والضبط .

ثانياً : إثبات الحقائق المقررة .

ثالثاً : التعليل والإيضاح .

وفى باب العدالة والضبط يقول الإمام مالك بن أنس - ١٧٩هـ - : لايؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك ، لايؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولامن كذاب يكذب فى أحاديث الناس ، وإن كان لايتهم فى الكذب على أحاديث رسول الله ﷺ ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لايعرف مايحدث به ، وقال : إن هذا العلم دين فانظروا ممن تأخذون دينكم ، ولقد أدركت سبعين ممن يقولون: قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين فما أخذت منهم شيئا ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان به أمينا لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن .

ويقول الإمام مسلم - ٢٦١هـ - : واعلم وفقك الله تعالى أن الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها وثقات الناقلين لها من المتهمين ألايروى منها إلا ماعرف صحة مخارجه وإسناده من ناقليه وأن ينفى منها من كان من أهل التهم

والمعاندين من أهل البدع .

ويقول الإمام الغزالى : العدالة فى الرواية والشهادة عبارة عن استقامة السيرة فى الدين ، ويرجع حاصلها إلى هيئة راسخة فى النفس تحمل على ملازمة التقوى والمروءة جميعاً .

ويقول الشيخ تاج الدين السبكى : لابد أن يكون المؤرخ عالما عدلا عارفا بحال من يترجم له ليس بينه وبينه من الصداقة مايحمله على التعصب له ولا من العداوة مايحمله على الغض منه . وربما كان الباعث له على الضعة من أقوام مخالفة العقيدة واعتقاد أنهم على ضلال فيقع فيهم ، أو يقصر فى الثناء عليهم من أجل ذلك .

وهكذا يجمع مؤرخوالمسلمين على وجوب التحرر من الهوى والميل ومحاولة تغليب العدل على الهوى .

## ابن الهيثم والزهراوى وابن النفيس

## أعلام ثلاثة فى قمة العلم التجريبى الإسلامى

هذه أسماء لامعة يجب أن تعيها ذاكرة كل الشباب المسلم ولا تغيب عنها ؛ إيمانا بالدور الخطير الذى قامت بـه فى بناء الحضارة الإنسانية : هذا الدور الذى مايزال ممتدا وقائما وفاعلا بعد أكثر من ألف عام ، وهل يمكن أن ينسى الشباب الخوارزمى والبتانى والبيرونى وابن الهثيم والقزوينى والزهراوى وثابت بن قرة ؟

قال بريفولت فى كتابه ( بناء الإنسانية ) :

إن مايدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه لنا من كشوف مدهشة لنظريات مبتَكرة، بل يدين هنا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا :إنه يدين لها بوجوده نفسه فالعلم القديم لم يكن للمعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها من سواهم ولم تتأقلم فى يوم من الأيام فـتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية .

وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ، ولكن أساليب البحث وجمع المعلومات الإيجابية ، والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبى : كل ذلك كان غريباً تماما عن المزاج اليونانى ، ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية فى العهد الهلينى . أما ما ندعوه العلم فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان وهذه الروح وهذا المنهج أدخلها العرب إلى العالم الأوربى . أ.هـ.

ولم يقف بريفولت عند هذا الحد فى تقويم فضل الفكر العربى الإسلامى ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك حين قرر أن روجر بيكون نقل مذهب العرب فى البحث العلمى ، فيقول : إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربى والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه فى الأندلس ، وليس لروجربيكون ، ولا لسميه فرنسيس بيكون الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار

المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلامى إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يملْ قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه أن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق .

وجملة القول : إن الفكر العربى الإسلامى سبق بيكون وديكارت ، وأنه طبق منهجه تطبيقا منصفا ، وإن قوام المنهج الإسلامى العلمى هو الاستقراء والقياس والتمثيل وقد عرفها جميعا ابن الهيثم وابن حزم والجاحظ والقاضى عياض والبيرونى وابن سينا .

وهؤلاء ثلاثة قمم فى العلم التجريبى الإسلامى : ابن الهيثم ، والزهراوى ، وابن النفيس .

أما ابن الهيثم فقد أجمع العلماء بأنه لولاه لما كان علم البصريات ، أخذ منه كيلرمعلومات عن الضوء ، ولاسيما فيما يتعلق بانكساره فى الجو ، وقد أقام ابن الهيثم بحثه على الاستقراء والقياس والاعتماد على المشاهدة والتجربة ، وهوأول من قرر بأن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين فى اتجاه المنظور، بل بواسطة أشعة تطلقها الأجسام المضيئة إلى العين التى تراها بواسطة جسمها الشفاف .

والحق أنه لم يجتمع لعالم ما اجتمع لابن الهيثم : كان بارعا فى الفلسفة والطب والهندسة والرياضة والفلك ، فألف ثلاثة وأربعين سفراً فى العلم الطبيعى ، وخمسة وعشرين كتاباً فى الرياضيات وأنشأ فى الطب كتابا بلغ ثلاثين جزءا ، وظل كتابه (الذخيرة) المرجع الأول لكل علماء الطبيعة فى أوربا حتى القرن السابع عشر الميلادى ، وقد نقل من اليونانية إلى العربية كتب الفلسفة والعلم من هندسة ومخروطات وجبر وأرطما طيقى وفلك .

وهو الذى تنبأ ببناء السد العالى فى مصر ، وقال وهوفى البصرة : لوكنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل النفع به فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان .

وقال سارطون : إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب فى علم الطبيعة فى القرون الوسطى ، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين فى العالم كله ، وأشارت إليه دائرة المعارف البريطانية وقال : إنه أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى علم البصريات، ويعد ابن الهيثم من أوائل من صنعوا المنهج العلمى التجريبى الإسلامى سابقاً

به فكر الغرب يقول :

يبتدئ فى البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتميز خواص الجزئيات ، ويلتقط باستقراء مايخص البصرفى حال الإبصار ، وماهو مطرد لايتغير وظاهر لايشتبه فى كيفية الإحساس ، ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ فى الغلط فى النتائج ، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لااتباع الهوى ، ونتحرى فى سائرمانجيزه وننقده طلبا للحق الذى به تثلج الصدور ، ونصل بالتدريج واللطف إلى الغاية التى عندها يقع اليقين وتظهر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف وتنحسم به مداد الشبهات .

ويقول : إذا وجدت كلاماً حسنا لغيرك فلاتنسبه إلى نفسك ، واكتف باستفادتك منه ، فإن الولد يلحق بأبيه والكلام بصاحبه ، وإن نسبت الكلام الحسن الذى لغيرك إلى نفسك نسب غيرك نقصانه ورذائله إليك .

وقال الباحثون : لولا ابن الهيثم لماكان علم البصريات ، أخذ عنه كيلرمعلوماته عن الضوء ولاسيما فيما يتعلق بانكساره فى الجو.أ.هـ .

أما الزهراوى فهو قمة القمم فى الجراحة ويعتبر كتابه ( التصريف لمن عجز عن التأليف ) واحداً من الكتب الأربعة الأساسية ، والثلاثة الأخرى هى : ( العمدة فى الجراحة ) لأبى الفرج موفق الدين ، و( الكليات ) فى الطب لابن رشد ، ( والقانون ) فى الطب لابن سينا .

وكتاب (التصريف ) هو عصارة خبرة الزهراوى فى حياته كلها ، ويقع فى ثلاثين جزءا ، ويتناول بالإضافة إلى الأمراض الباطنة العلاج بالعقاقير فى وصف دقيق لبعض الجراحات ، كاستخراج حصاة المثانة بالشق والتطبيب وربط الشرايين ، واستئصال اللوزتين باستخدام سنارة من ابتكار الزهراوى نفسه ، وكذلك استئصال الغدة الدرقية وعمليات بترالأطراف وعلاج الكسور واستعمال الجفت فى الولادة .

ويعد كتاب ( التصريف ) من أوائل الكتب فى تاريخ الجراحة التى اهتمت بالآلات الجراحية ، وقد وصل عدد هذه الآلات إلى مايزيد عن المائتين وأكثرها من ابتكار

الزهراوى ، وقد ظل كتابه مرجعا لمدارس الطب المختلفة لأكثر من خمسة قرون ، إلا أن القسطرة التى ابتكرها ورسمها واستخدمها فى العديد من العمليات الجراحية لم تعرف أهميتها إلا فى السنوات القليلة الماضية ، وكلمة (قسطرة) عربية أصلا ، وقد حرفها الغرب فيما بعد وسموها (كاستر) .

وكذلك تخصص الزهراوى فى طب وجراحة الأسنان ، وله آلات ابتكرها واستخدمها فى هذا المجال ، ( عاش الزهراوى فى القرن الخامس الهجرى ) .

أما ابن النفيس فهو مفخرة الطب الإسلامى ؛ لأنه وصف لأول مرة فى التاريخ الدورة الدموية سابقا سيرفتيوس الأسبانى ، وهارفى الإنجليزى ، فقد اهتدى ابن النفيس إلى أن اتجاه الدم ثابت وأنه يمر من التجويف الأيمن إلى الرئة حيث يخالط الهواء ، ومن الرئة عن طريق الشريان الوريدى ( الوريد الرئوى ) إلى التجويف الأيسر ، فالدم يأتى غليظا من الكبد إلى التجويف الأيمن ، حيث يلطف ، ثم يمر من الشريان الوريدى إلى الرئة حيث ينقسم إلى قسمين : قسم رقيق يصفى فى مسامه الشريان الرئوى ، وقسم غليظ يتبقى فى الرئة لتغذيتها ، أما القسم الرقيق فإنه يختلط بالهواء القادم إلى الرئة عن طريق القصبة الهوائية ويدخل الشريان الوريدى ( الوريد الرئوى ) عبر جداره النحيف ، ثم يصل الدم الرقيق المخلوط إلى التجويف الأيسر ، حيث تتكون الروح التى تخرج منه إلى الأورطة ، فالشرايين فالأنسجة ، وأما غذاء القلب فيكون عن طريق أوعية خاصة تمر فى صميم عضلة القلب .

هذا ماسجله الدكتور التطاوى عام ١٩٢٣ ، وعرضه على أساتذته الذين أرسلوا النصوص العربية التى اقتبسها التطاوى من كتاب ابن النفيس ( شرح تشريح القانون) الذى يعد مفخرة الطب العربى – كما قال الدكتور بول غليونجى فى كتابه عن ابن النفيس – وقد أذهل الاكتشاف الدكتور مايرهوف ، فأبلغ زملاءه بصحة ماذهب إليه الدكتور التطاوى ، وأرسل بالخبر على جناح السرعة إلى المؤرخ الكبير سارتون ، فأدرجه فى نهاية كتابه ( مقدمة لدراسة تاريخ العلم ) ثم أثبته مايرهوف وزميله شاخت فى الفصل الذى أوردته المعارف الإسلامية ، حيث تأكد نهائيا أنه ابن النفيس وليس هارفى ولاسيرفيتوس هو مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، وقال مؤرخ الطب الفرنسى بينيه وتلميذه الدكتور عبد الكريم شجاره :

إن سيرفيتوس قد اطلع على ترجمة لماذهب إليه ابن النفيس ، وأنه أفاد منها ، وأن هارفى قد نقل عن سيرفيتوس الاكتشاف ، ولكن كليهما لم يشيرا ألبتة إلى ابن النفيس كمافعل الكثيرون من العلماء ومترجمى المؤلفات العربية إلى اللاتينية ، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ عطيفة كنانى فى بحثه الذى نقلنا عنه ذلك .

ولاريب أن المقارنة بين الفترتين التى عاشهما كل من سيرفيتوس والأسبانى وابن النفيس العربى تظهر أن ابن النفيس عاش بين عامى ١٢١٠– ١٢٨٨بينما عاش سيرفيتوس بين عامى – ١٥١١– ١٥٥٣ أى أن بينهما حوالى ثلاثة قرون ، وكان كتاب ( تشريح القانون) قد ترجم إلى اللغة اللاتينية وجرى نشره فى مدينة البندقية عام ١٥٤٧ أى قبل صدور نظرية سيرفيتوس بست سنوات حيث لاتزال مخطوطة ابن النفيس إلى اليوم مجمدة فى محفوظات المكتبة الفرنسية محرومةمن رؤية النور .

وكذلك فإن ابن النفيس بالتأكيد أسبق من الطبيب البريطانى وليم هارفى الذى يعتبره الإنجليز مكتشف الدورة الدموية ، إذيكفى أن هارفى قد ولد عام ١٥٧٦ ، أى بعد ربع قرن من موت سيرفيتوس وحوالى ثلاثة قرون من موت ابن النفيس .

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم        إذا جمعتنا ياجريرالمجامع

## صحح علماء المسلمين ( ابن الهيثم ، ابن حزم ، جابر بن الأفلح ، الغزالى ، الجاحظ ) أخطاء علماء اليونان ( بطليموس ، وإقليدس ، وأرسطو ، وأبقراط ، وجالينوس )

هناك قضية خطيرة يجب أن تحسم : هى قضية موقف المسلمين من الفكر اليونانى الذى ترجم إبان القرن الثالث الهجرى إلى اللغة العربية .

إن مقولات كتاب الغرب وأتباعهم من المستشرقين والمغربين تحاول أن تصور المسلمين وقد تهافتوا على هذا الفكر ، فشكلوا منه فكرهم ، أوأنه كان هو إنجازهم الوحيد الذى استردته أوربا من بعد ، أو أنه هو الذى فتح للمسلمين آفاق العلم والبحث وكل هذه مقولات مضللة ؛ ذلك أن المسلمين :

**أولاً** :كانوا قد شكلوا فكرهم الإسلامى استمداداً من القرآن الكريم والسنة المطهرة خلال حياة الرسول ﷺ ، وعندما ختمت الآيات الكريمة ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم**﴾ [ المائدة : ٣] كان هذا المنهج الربانى قد اكتمل ولم يعد فى حاجة إلى إضافة جديدة .

**ثانياً** : أن المنهج العلمى التجريبى أنشأه المسلمون استمداداً من نصوص القرآن الكريم التى وجهتهم إلى النظرة فيما فى السموات والأرض والاعتبار وتقديم البرهان والدليل .

**ثالثاً** : إن المسلمين عندما ترجم الفكر اليونانى لم يقبلوه ونقدوه وكشفوا أخطاءه ، واعتبروه منهجا مختلفا لاختلاف المصدر والغاية .

ومن هنا فقد كان أكبر ماواجه به المسلمون المنهج اليونانى هو الكشف عن أخطائه وتجاوزاته ، وقد جرى ذلك فى عدة مسالك . وكان الإسلام بمفاهيمه ومنهجه قادراً على كشف أخطاء منهج اليونان ولقد أكد العلامة ساراحون فى دراسته الموسوعية عن العلم : أن العرب لم ينقلوا العلوم القديمة كماهى ، وأنهم خالفوا أرسطو وجالينوس

وأفلاطون وبطليموس وغيرهم ونقدوا آراءهم . وقال ساراحون : العرب كانوا أعظم معلمين فى العالم ، وأنهم زادوا فى هذه العلوم ، وصححوا كثيراً من أغلاط الفلسفة اليونانية التى أخذوها ونـقدوها وأنهم لم يكتفوا بذلك ، بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالتقديرمن حيث النور والارتقاء .

وقد ظهر دور المسلمين فى مواجهة أخطاء الفكر اليونانى على النحو الآتى:

**أولاً :ماكتبه ابن الهيثم فى الشكوك على بطليموس :**

قال : الحـق مطلوب لذاته ، وكل مطلوب لذاته فليس يعنى طالبه غير وجوده ، ووجود الحق صعب والطريق إليه وعر، ولما نظرنا فى كتب بطليموس العكوذى وجدنا علوما كثيرة ، ولما درسناها وميزناها وجدنا فيها مواضع مشبهة ، وألفاظا بشعة ومعانى متناقضة إلا أنها يسيرة فى جنب ماأصاب فيه من المعانى الصحيحة ، ورأينا فى الإمساك عنها هضما للحق وتعديا عليه .

**ثانياً : الفارابى أبطل صناعة التنجيم :**

وقـد كشـف الـفارابى عـن فسـاد صناعـة التنجـيم التى عرفها اليونان ، وله رسالة سماها ( النكت فيما يصح وفيما لايصح من أحكام النجوم ) بين فيها فساد أحكام علم النجوم الذى يعزو كل ممكن وكل خارق إلى فعل الكواكب . وقال الفارابى : إنه من الخطأ الكبير مايزعمه الزاعمون مـن أن بعـض الكواكب يجـلب السعادة ، وأن بعضها يجلب النحس .

ويقول العلامة دى بور : لقد انتهى الفارابى بأن هناك معرفة بـرهانية يقينية إلى إكمال درجات اليقين فى علم النجوم التعليمى ، أما دراسة خصائص الأفلاك ونقلها فى الأرض ، فلا تظفر منها إلا بمعرفة ظنية ، ودعاوى المنجمين ونبوءاتهم لاتستحق إلا الشك والارتـياب ، كـذلك فـقد أصـدر ابـن سيـنا رسـالة فـى ( إبطال أحكام النجوم ) فـقال :

إنه ليس شىء مما وصفوه دليل ولايشهد على صحته قياس .

**ثالثاً : ابن حزم رفض أثر النجوم فى الناس :**

قال : زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع وهذه دعوى باطلة بلابرهان ، وصحة الحكم بأن النجوم لاتعقل أصلا وأن حركتها أبداً على رتبة واحدة لاتتبدل عنها وهذه صفة الجماد ( المدبر ) الذى لااختيار له . وليس للنجوم تأثيرفى أعمالنا ولا لها عقل تدبرنا به والنجوم لا تدل على الحوادث المقبلة .

**رابعاً : نقد ابن طفيل وغيره نظام بطليموس :**

وحاول إصلاحه ، كذلك وضع ابن باجه ملاحظات على نظام بطليموس فى الفلك وانتقده، وأبان موضع الضعف فيه ، وأكد ابن طفيل أن العالم متناه وأن كل جسم متناه ، وقال إذا فرضنا أن جسما غير متناه فقد فرضنا باطلا ومحالا .

**خامساً : جابر الأفلح ونقد المجسطى :**

وجاء على أثرذلك جابر بن الأفلح وأوصلته دراساته فى الفلك إلى إصلاح المجسطى، وكذلك عكف البطروجى ، ثم البتانى الذى درس مؤلفات بطليموس ، وخالفه فى آراء ووافقه فى آراء وبين الآراء التى تدفعه إلى ذلك ، فقد حقق البتانى مواقع كثيرة من النجوم ، وصحح بعض حركات القمر والكواكب السيارة وخالف بطليموس فى ( إثبات الأوج الشمسى ) وأقام الدليل على تبعيته لحركة المبادرة الاعتدالية، واستنتج من ذلك أن معادلة الزمن تتغير تغيراً بطيئاً على مر الأجيال . وقد أثبت على غير ماذهب إليه بطليموس ، تغير القطر الزاوى الظاهرى للشمس ،واحتمال حدوث الكسوف الحلقى .

**سادساً :الغزالى ينقل مقولات جالينوس :**

١ــ قال جالينوس : إن الشمس لاتقبل الانعدام ، ودليله على ذلك زعمه أن الأرصاد لم تثبت ، أى تبدل فى حرارة الشمس أوحجمها واعترض الإمام الغزالى على جالنيوس وخالفه وقال : إن أرصاد القدماء هى تقريبية ، وأن الشمس لعظم حجمها قد تخف حرارتها من غير أن يلاحظ الناس ذلك فى مدة قصيرة .

٢ــ كذلك فقد ناقض الغزالى مقولة فلاسفة اليونان من أن السماء « عالم الأجرام السماوية » هى حيوان ، وأن له نفسا نسبتها إلى بدن السماء كنسبة نفوسنا إلى أبداننا

نتحرك بالإرادة نحو أغراضها بتحريك النفس فكذا الحيوان ، وقد أنكر الغزالى هذه المقولة ، ولم يأخذ بها فى كتابه ( تهافت الفلاسفة ) فهدم بإنكاره هذا عمداً من عماد الخرافات التى رفعها العقل اليونانى .

**سابعاً : ابن الهيثم أبطل علم المناظر اليونانى :**

ثم جاء ابن الهيثم فقلب الأوضاع القديمة وأنشأ علما جديدا ، فقد أبطل « علم المناظر » الذى وضعه اليونان ، وأنشأ علم الضوء الحديث بالمعنى والحدود والأصول التى نريدها الآن ، وكان ابن الهيثم قد درس إقليدس وبطليموس فى مقولاتهم فى علم الضوء، فأخرج مفهوماً مختلفاً تماما ، واتخذ ابن الهيثم جهازاً خاصاً سماه « آلة الانعطاس » للتأكد من وقوع الشعاع الساقط والشعاع المنعكس ، وفى الانعطاف اتخذ جهازاً أسماه « آلة الانعطاف » وكل ذلك مختلف اختلافاً عظيماً عن الجهاز الذى ذكره بطليموس فى كتابه المناظر . وخالف ابن الهيثم بطليموس فى عديد من النظريات:

١- خالفه فى قوله : إن الزيادة الظاهرة فى قطرى الشمس والقمر يكونا قريبين من الأفق ، وبين أن الزيادة وهمية .

٢- وخالف بطليموس فى نظريته « أن النسبة بين زاويتى السقوط والانكسار ثابتة » وأوضح الخطأ فى هذه النظرية وقال إن النسبة لاتكون ثابتة بل تتغير .

٣- وصحح ابن الهيثم أغلاط فلاسفة اليونان وعلمائهم فى تعليل الظواهر الحيوية التى تنشأ عن الانكسار .

**ثامنا : ابن حزم ينقض رأى أرسطوفى العناصر الأربعة :**

كان أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان يعتقدون أن العالم يتألف من العناصر الأربعة « الماء - الهواء - التراب - النار » وقالوا إن هذه العناصر تحمل نوعاً من الحياة ، واطلع ابن حزم على هذا الرأى ، وقال بالعناصر الأربعة ، ولكنه أنكر أن تكون حية ، أو أن تحمل نوعاً من الحياة ، فقال إنها موات بطبعها، وعلى هذا يتركب منها أجسام موات كالحجارة والخشب ، وأجساد الناس والحيوان والنبات بصرف النظر عن الحياة فيها « فإن جسد الإنسان الميت مثلاً مؤلف من هذه العناصر » .

**تاسعاً : أسقط المسلمون نظام بطليموس :**

وانتقد ابن طفيل والطوسى نظام بطليموس ، فقد كان القدماء يعتبرون أن الشمس والقمر والكواكب الخمسة « عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل » كأنها ثابتة على كرات مجسمة تدور حول الأرض ، ويتولد من دورانها الموسيقى السماوية ، وأدخل بطليموس النظام الشمسى المعروف باسمه .

وقد أدخل ابن الهيثم تغيرات على هذا النظام فى رسالة ( هيئة العلم ) وتقوم هذه التغيرات على تجسيم الأفلاك ، فجعل كل كوكب يدور على كرة فلكية يبعد مركزها عن مركز العالم بمقدار بسيط بحيث يتفق التقويم تقريباً مع الأرصاد .

**عاشراً : نقد المسلمون نظريات أبقراط وجالنيوس فى الطب اليونانى :**

وقد رفض ابن النفيس نظرية جالنيوس الخاطئة فى الدور الذى تقوم به الرئتان فى نقل الدم من تجويفة القلب الواحدة إلى الأخرى ، فلقد كان الشائع ماقال به جالنيوس ، وهوأن الدم يتولد من الكبد ومنه ينتقل إلى البطين الأيمن من القلب ، ثم يسرى بعد ذلك فى العروق إلى مختلف أعضاء الجسم فيغذيها، وقد قام ابن النفيس يعارض هذه الآراء وينقدها ، وخطا خطوة إيجابية فقال : إن الدم ينساب من البطين الأيمن إلى الرئة ، حيث يمتزج بالهواء ثم إلى البطين الأيسر، وهى الدورة التى يطلق عليها اليوم « الدورة الدموية الصغرى » وهكذا أصبح ابن النفيس الإمام الهادى لهارفى الطبيب البريطانى الشهير الذى اكتشف الدورة الدموية الكبرى .

**حادى عشر : الجاحظ يصحح لأرسطو:**

نقد الجاحظ فى كتابه (الحيوان ) مقولة أرسطوبأن إناث العصافير أطول أعماراً ، وأن ذكورها لاتعيش إلا سنة وقال :إنه لم يأت بدليل على ذلك ، وكيف يستطيع والعصافير قد تكون والميازب مملوءة بها وببيضها وفراخها ، والناس القريبون منها لم يروا عصفورا قط ميتا ، وقال لوقال أرسطو ذلك على وجه التقريب والظن لم يلمه أحد من العلماء ، ويجب أن يفرق بين الواجب والمقرب وبين الدليل وشبه الدليل .

ومن هذا كله يتضح حقيقة موقف الإسلام من الفكر اليونانى :

١ـ أنه لم يقبله أساساً لأنه يصدرعن أساس قائم هوعلم الأصنام .

٢ـ أنه كان موجهاً وجهة العبودية ، فقد قام على نظام الرق الذى أقره عظيما الفكر اليونانى ـ أرسطو وأفلاطون ـ ورفضه الإسلام .

٣ـ أن الفكر اليونانى لم يعرف التجريب وكانت مقولاته فى أغلبها ظنونا وتقولات .

وهكذا حرر العلماء المسلمون مقولات علماء اليونان فى مختلف المجالات ، وقد اعتمدنا فى هذا البحث على دراسة إضافية للعالم الجليل قدرى حافظ طوقان رحمه الله .

## كيف وقف الشافعى وابن حنبل والغزالى وابن تيمية فى وجه الإعصار ؟

لاشك كانت قضية تحرير مفاهيم الإسلام من التبعية للفكر الوافد سواء أكان هذا الفكرمن تراث الأديان القديم أم من تراث الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية المترجمة إلى اللغة العربية فى هذه المرحلة فى القرن الثالث الهجرى ، كان هذا هو الهم الأكبر والشغل الشاغل لقادة الفكر الإسلامى ومجدديه وحاملى لوائه على مدى هذا التاريخ.

يبدو هذا واضحاً جلياً فى مراجعة تراجم وأعمال هؤلاء العلماء الأعلام جميعا ، ويبدو واضحاً تماماً فى تراث الشافعى وأحمد بن حنبل والغزالى وابن تيمية وابن حزم، حتى يمكن أن يطلق على هؤلاء ـ زيادة على دورهم فى علوم الفقه والسنة ـ مصححى المفاهيم ومجددى بناء الفكر الإسلامى ومحرريه من التبعية .

وتلك مهمة ضخمة لم يتصدر لها إلا قليل خلال مراحل مختلفة متوالية ، وفى فترات دقيقة من أدق فترات حركة الفكر الإسلامى ، وسعيه إلى بناء منهج جامع يضم مختلف التيارات ؛ ليصهرها فى بوتقة الوحدة إيمانا بمفهوم التنوع فى دائرة الوحدة ، وشجب مختلف الانحرافات التى أثارتها الدعوات الباطنية والمخاصمة للإسلام أساساً ، حتى يستوفى منهج أهل السنة والجماعة ويستوى على أصوله الصحيحة .

**أولاً : اللغة العربية لسان القرآن :**

ويبدو ذلك واضحا فى وجهة الإمام الشافعى وتركيزه على اللغة العربية ، حيث يرى أنها جزء من العقيدة ؛ لأن القرآن الكريم نزل بها ، وقد خلص الشافعى من بيان أن القرآن عربى ـ على حد تعبير المستشار عبد الحليم الجندى ـ إلى حكم فقهى هو فرض تعلم اللغة العربية وجوباً على كل مسلم ؛ ليشهد الشهادتين ، ويتلو الكتاب العزيز ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغيره من الواجبات وقال :

فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ماتعرف من معانيها . ورتب على

ذلك مايربط الشريعة الإسلامية كلها باللغة العربية . وقال الشافعى : وأولى الناس بالفضل فى اللسان من لسانه لسان النبى ﷺ ولايجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه فى حرف واحد ، بل كل لسان تبع للسانه ، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه، ويصل الإمام الشافعى إلى الغاية حين يقول : ماجهل الناس ولا اختلفوا إلا بتركهم لسان العرب ، وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس .

فهذه هى القاعدة الأولى فى ذلك البناء الذى نما بعد ذلك ، وسمق فى إبراز ذاتية الإسلام وخصوصيته، فيقول : ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ، ويريدون أن يخفضوا مارفع الله من منارها ، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج وزيغاً على سواء المنهج ، والذى يقضى منه العجب حال هؤلاء فى قلة إنصافهم، وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم لايجدون علما من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وتفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بيّن لايدفع ومكشوف لايتقنع .

وهذا مايعنيه الإمام الشافعى حين حاولت المعتزلة وغيرها الخروج عن فهم الإسلام الجامع ، إلى إعلاء شأن العقل واعتباره السبيل الواحد فى البحث ، وقد واجهت هذه النظرية معارضة كاملة من قادة الأصالة الإسلامية على مستوى العصور وكلما تجدد القول فى العقلانية وخاصة فى العصر الحديث .

وكانت حجة الباحثين المسلمين أن العقل والقلب فى القرآن مترادفان ومتكاملان ، وأن العقل سراج زيته الوحى لذلك فإن سيادة العقل كمصدر وحيد للمعرفة ، إنما تعنى فى حد ذاتها انتقاص شأن الوحى والغيب كله .

**ثانياً : مؤامرة خلق القرآن :**

ولقد كان من أكبر الأخطار أن وقع بعض المفكرين فى شرك الفلسفة اليونانية ، الذى عبرعنه الإمام الشافعى بلسان أرسطوطاليس حين دعا بعض المعتزلة إلى فكرة خلق القرآن.وقد وقف الإمام أحمد بن حنبل على رأس الفريق المؤمن الصامد حين قال: القرآن كلام الله لانقول مخلوق ولا غير مخلوق .

وقد وقف الإمام أحمد بن حنبل ثمانية عشر عاماً فى وجه المحنة فى خلال حكم المأمون والمعتصم والواثق ، سجنه المأمون وحاكمه الواثق وكانت صيحته المدوية فى

محاكماته : أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسول ﷺ أقول به .

القرآن كلام الله لاأقول مخلوق ، وقد أقام صابراً محتسباً خلال حكم الخلفاء الثلاثة ووقف سداً منيعاً - كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوى - فى اتجاه هذه الأمة إلى الفكر الفلسفى المتهور ، الذى لوسيطر على الأمة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابعها الأولى وعن النبوة المحمدية ، ولخضعت للفلسفات ، وأصبحت عرضة للآراء والقياسات ، ولانتصرت السياسة على الدين انتصاراً مؤبدا وسلبت حرية الرأى والعقيدة .

وهكذا كانت وقفة الإمام أحمد بن حنبل أول ضربة معول فى هذا الاحتواء الخطير ، الذى استشرى حين طمع المعتزلة فى السلطان وغالوا فى نشر مذهبهم وتعصبوا ضد كل من لايوافق نحلتهم .

ولقد كانت وقفة الإمام أحمد بن حنبل إزاء هذا التيار الجارف المتمكن بقوة السلطة أمانا للنفس الإسلامية ، مما حفظ لها مفهوم الإسلام الأصيل دون تحريف يخرجه عن جوهره وبساطته ومنابعه الأولى ، ولم يبال فى سبيل ذلك بالتعذيب والضرب ، فأخذ وسحب وخلع وشدت يداه فخلعتا ، ولم يزل يتوجع منهما حتى مات وكان الجلادون يتناوبونه بالضرب ، وهو لايتزحزح عن موقفه ؛ فإذا انصرف أضيف إليه قيد جديد يوضع فى قدمه .

**ثالثاً : محاذير الفلسفة اليونانية :**

وجاء الإمام الغزالى فحطم الفلسفة المادية ولم يكن ظالما ، ولكنه كان منصفا تماما فقد أثبت حقها فى مجال العلوم الطبيعية والرياضية ، ولكنه هاجم الفلسفة الإلهية وحدها ، لأنها كانت تصدر عن مفاهيم علم الأصنام اليونانى ، وقال : إن أغلب العلوم الطبيعية والرياضية أمور برهانية ، وأنه لايخدم الإسلام إنكارها ، وليس فى الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى أو الإثبات ، ولافى هذه العلوم تعرض الأمور الدينية أما الفلسفة الإلهية ففيها أكثر أخطائهم ، وقال : إنهم ماقدروا على الوفاء بالبراهين على ماشرطوه فى المنطق ، ويرجع ذلك إلى أن الإلهيات ليست كالعلوم الأخرى –

الرياضية والطبيعية – وليس لها مقدمات ومبادئ ، ولهذا كثرت فيها أغلاطهم وتخيلاتهم . وإن خطر الفلسفة على أذهان الناشئة هو أن يجدوا أصحابها ، مع رزانة عقولهم وغزارة علمهم ، منكرين للشرائع والنحل ، جاحدين لتفصيل الأديان والملل وقد ألحدوا وأنكروا الدين تطرفا وتكيسا .

ووجه الإمام الغزالى هدفه إلى تهافت عقيدة فلاسفة اليونان وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالإلهيات ، وأن هذه المسائل ليست حقائق علمية .

وحصر الغزالى خلافه معهم فى ثلاث مسائل :

أولاً : فساد قولهم بقدم العالم .

ثانياً : فساد قولهم بأن الله تبارك وتعالى لايحيط علماً بالجزئيات الحادثة .

ثالثاً : إنكارهم بعث الأجساد وحشرها .

وقال : إن مقولاتهم فى هذه الأمور الثلاثة لاتلائم الإسلام بوجه ، ومن هنا فإن الدعوى التى توجه إلى الإمام الغزالى بأنه خصم للفلسفة عامة هى دعوى باطلة ، إنما هاجم الغزالى « الفلسفة الإلهية الإغريقية الوثنية » التى لاتتفق مع عقيدة التوحيد وكشف عن أثر هذه الفلسفة فى نفوس من يتمسحون بها ؛ ليثيروا الشكوك والأوهام حين ينكرون الأديان والشرائع ، ولم يهاجم الغزالى إلا مايصادم الشريعة من أقطارهم ، على نحو علمى بيّن فيه ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم وتهافت عقيدتهم .

**رابعاً : إعلان فساد المنطق :**

وكان الإمام ابن تيمية هو الحلقة الرابعة فى هذه المعركة ،التى حققت أصالة مفهوم الإسلام الجامع ، وكشفت زيف دعاوى من يقولون بأن الفكر اليونانى هو الذى شكل منهج الفكر الإسلامى ، فقد هاجم ابن تيمية كل انحرافات الفكر الإسلامى الخارجة عن مفهوم القرآن الكريم ، وأعلن أن الأساس الأصيل لهذا الفكر إنما يتمثل فى الكتاب ـ القرآن ـ والسنة مفسرة له وموضحة ، وقال : إن الكتاب ـ القرآن ـ ليس علم عقائد بالخبر والنقل وحسب ، بل بالدليل والبرهان ، وأن النبى فسر القرآن كله ؛ لأنه هو الذى عليه أن يبينه ويوضحه وبيانه من أركان تبليغ الرسالة ، وقد تلقى

الصحابة تفسير القرآن وعلمه كله .

ويرى الإمام ابن تيمية أن منهاج القرآن ليس هو منهج الفلاسفة ولا المتكلمين ولا الماتريدية ولا الأشاعرة بل هو غيرها ، لأن العقائد لاتؤخذ إلامن النصوص ، ولا تؤخذ أدلتها إلا من النصوص ، فأصحاب هذا المنهج يؤمنون بالنص والأدلة ، وأن الأساليب العقلية المنطقية مستحدثة فى الإسلام ، ولم تكن معروفة قطعاعند الصحابة والتابعين .

ولاسبيل إلى معرفة العقيدة والأحكام وكل مايتصل بها؛ إلا من القرآن والسنة المبينة له ، والسير فى مسارها فما يقرره القرآن وماتشرحه السنة مقبول ولايصح رده، فليس للعقل سلطان فى تأويل القرآن وتفسيره أو تخريجه إلابالقدر الذى تؤدى به العبادات وسلطان العقل هو التصديق والإذعان وبيان تقريب المنقول من المعقول . وعدم المنافرة بينهما ، فالعقل يكون شاهداً لاحاكما ، ويكون مقرراً ومؤيداً لاناقضا ولا رافضاً ، ويكون موضحا لما اشتمل عليه القرآن من الأدلة .

هذا هو « منطق القرآن » الذى يتطلق منه مفهوم الفكر الإسلامى وهو غير منطق أرسطو ، الذى سيطر فترة ما ، وعند ابن تيمية أن منهج الفلاسفة مضطرب ،حين سعوا إلى بناء طريقهم على ترتيب الأقيسة العقلية ، فقد فاتهم أن العقل وحده عاجز عن درك حقائق الدين ، ولابد من النص .

وعنده أن العقل يتجه إلى القرآن ويتفهمه بالفكر ، أى بموازنة آيات القرآن بعضها ببعض ، فيكون تأويل القرآن من القرآن لامن أقوال الفلاسفة والمتكلمين ، ويأخذ ابن تيمية على الفلاسفة طريقتهم فى التفكير والمقدمات التى يبنون عليها النتائج التى وصلوا إليها ، ويرى أن القرآن والسنة قد أشارا إلى المقدمات التى تهدى إلى سواء السبيل .

وجملة منهج ابن تيمية : أن الفساد لم يأت من قبل النصوص فهى حق فى معناها، ولاتحتاج إلى تأويل وإنما جاء من حملها على معان فاسدة ، ليست معانيها المرادة بها .

وبذلك حرر ابن تيمية الفكر الإسلامى من الأزمة التى مرت به ، حين يقوم من يدعو إلى رأى منحرف فيستغل النصوص ويلوى أعناقها والإسلام بعد ذلك سمح رحب ، سائر بالحياة متصل بها ، مفتوح الآفاق مع الفكر الإنسانى كله .

ولاريب أن الفكر الإسلامى قد تخطى هذه العقبات الأربع وحرر نفسه من التبعية للفكر الوافد ، وبقى أن نكون قادرين اليوم على مثل هذه المواجهة مع الفكر الغربى بتياراته الثلاثة :الغربية والماركسية والصهيونية، فنحن الآن نواجه نفس المعركة مجددة، وسوف يقف قادة الفكر الإسلامى موقف الصمود والثبات فى وجه الإعصار .

## كتب رائدة فى التراث الإسلامى

قدم التراث الإسلامى عددا كبيرا من الكتب الرائدة ، التى كانت بمثابة الأصول العامة فى فنونها المختلفة ، مما يتوجب التعرف إليها ، ففى الفقه الإسلامى ذكر أن أول كتاب صنف فى الفقه الإسلامى هو مجموع الفقه تصنيف الإمام الشهيد ابن الحسين زيد بن زين العابدين على أبى الحسين بن على بن أبى طالب والذى ظهر فى أيام هشام ابن عبد الملك عام ١٢٢هـ .

كذلك فقد عرف المسلمون المصطلح الشريف ـ الذى يسمى :البروتوكول ـ وأول من كتب فى هذا شهاب الدين بن فضل الله العمرى المتوفى ٧٤٩هـ فى كتابه ( التعريف بالمصطلح الشريف ) .

والثانى كتاب (صبح الأعشى ) لأبى العباس المتوفى ٨٢١هـ ، أما فى الأحكام السلطانية فهناك كتابان : الأول لأبى الحسن على بن محمد الماوردى والآخر لأبى يعلى محمد بن السيد الفراء الحنبلى ، والكتابان يبحثان فى موضوع واحد هو « السياسة الشرعية ».

وقد وضع الماوردى منهجا كاملا لشكل الدولة فى الإسلام ، من نظام الحكم والولاية والإمامة والقضاء ، ونظامها الاقتصادى من أحكام الحسبة والمحتسب والأرض الزراعية ومصادر المياه وغيرها ، ولم يتوقف الأمر عند الماوردى وأبى يعلى ؛ فقد كتب فى العلوم السياسية الإسلامية : الشافعى والغزالى والجوينى وابن حزم وقد اشتركوا جميعهم ، فى رسم خطوط السياسة الإسلامية فى مختلف مجالات الإمامة والولاية ، ومن كتاب إحياء علوم الدين للغزالى ، والسياسة الشرعية لابن تيمية وأعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ، والمقدمة لابن خلدون ، يتشكل هذا المفهوم .

ثم جاء الشيبانى فى كتابه ( الكسب ) فكتب عن السياسة الدولية كما تناول أصول الاقتصاد الإسلامى فوضع نظرية الكسب حيث بحث موارده ، وقال إن أهم وسائل الكسب هو العمل وتطرق لوسائل الكسب من التجارة والصناعة والزراعة ، وفى هذا المجال كتب أبوعبيد القاسم بن سلام ( كتاب الأموال ) حيث تكلم فى المالية

العامة ، وقد جاء بعد كتاب ( الخراج ) لأبى يوسف ، ثم جاء كتاب ( الخراج ) ليحيى ابن آدم ، وقد يتناول أبويوسف أغلب أحوال مالية الدولة حسب ورودها فى الشريعة الإسلامية من غنائم وفىء وخراج وعشور وجزية وزكاة ، ويعد كتاب ( الخراج ) الذى ألفه قدامة بن جعفر (٢٣٧هـ / ٨٥١ م ) أول كتاب عربى شامل لكل المعارف التى يحتاج إليها المشتغل بالكتابة الديوانية والإنشائية ،وقد أطلق على كتابه الجامع هذا الاسم ( الخراج ) والمراد به الشؤون المالية للدولة وهى عصب الإدارة وعماد الخلافة .

وفى مجال التربية يضم التراث الإسلامى عشرات المؤلفات التى تهتم بتربية الطفل والنشئ ، ومن أشهر هذه الكتب ماكتبه القابسى وابن مسكويه وبرهان الدين الزرنوجى والغزالى وابن خلدون ، كما عالج الماوردى فى كتابه ( أدب الدنيا والدين ) قضايا التربية والتعليم والنفس والاجتماع .أما القابسى فقد سبق علماء التربية المعاصرين بأمرين :

**أولهما** : أن التعليم حق لكل صبى ، وواجب على الدولة فى حالة عدم قدرة أهله على الإنفاق عليه ، والحجة فى ذلك أن الدولة الإسلامية مكلفة أن تعلم كل مواطن أمور دينه وليس هناك من سبيل لتحقيق ذلك إلا بتعلم القرآن قراءة وكتابة وإعرابا .

**ثانيهما** : هو اهتمامه بتعليم البنات انطلاقا من مبدأ الإسلام فى الجمع بين الذكر والأنثى والأغنياء والفقراء .

وقد أعلن القابسى هذه الآراء فى القرن العاشر الميلادى، أى فى صميم القرون الوسطى التى كان أهل أوربا يعانون فيها من الجهل والظلام .

وبالجملة فقد قدمت كتابات علماء التربية المسلمين وجهة نظر الإسلام على نحو صحيح مما هو الآن مثار فخر الغرب وهو عند المسلمين منذ قديم كإلزامية التعليم ، وإقرار حق البنت فى التعليم ومراعاة ميول المتعلم وجعلها أساسا لإرشاده وتوفيرجو الحرية للمعلمين والمتعلمين ، وتأصيل الروح الاستقلالية وتعدد طرق التدريس ، تبعا لاختلاف درجات النمو ومراحل التعليم ، والاهتمام بحاجات الفرد الجنسية والروحية والعقلية ، حيث كان هدف التربية الإسلامية هو إيجاد الفرد المسلم المتكامل النمو الذى يسهم فى تطوير مجتمعه .

أما فى مجال الجغرافيا ، فلقد كانت الجغرافيا علماً عربيا أصيلا ، الاسم نفسه أعجمى الصياغة ، ولن يؤثر فى عروبة العلم أن أطلق عليه المتأخرون اسما أعجميا كان فى اصطلاحهم القديم ( تقويم البلدان ) أصدق دلالة ،فالتقويم من قوم الشىء أى قدر قيمته .

قال كراتشوفسكى فى كتابه الأدب الجغرافى العربى : إن العرب كانوا ذوى عناية خاصة بالعلوم الجغرافية وإن الحوافزدفعتهم إلى دراساتهم المتشعبة فى هذا الاتجاه وكانت معظمها حوافز دينية ، هناك فريضة الحج ومايصحب رحلاتها من النشاط التجارى ، ومايتطلبه ذلك من معرفة الطرق ودراسة طبيعة الأقاليم ، وهناك شهر الصوم وضرورة تحديد بدايته ونهايته،وهناك الصلوات الخمس ، وضرورة تحديد مواقعها وقياس ظل العصر، وهناك القبلة وضرورة حفظ الاتجاه إليها فى مختلف البلاد ، فاختلاط العرب بشعوب العالم عن طريق التجارة ، وقطعهم المفاوز ، ووقوفهم على حالة البلدان وخصائص الأقاليم ، وتقديرهم للمسافات ، كل ذلك زاد فى ثروة معارفهم الجغرافية ولم يقوموا بهذا كله إلا اعتمادا على استقرائهم الشخصى ، وذكائهم الفطرى ، وقد اجتمع سبعون رجلا فى عصر المأمون ووضعوا الصورة المأمونية التى صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ، مما أعان عمال الدولة على التعرف إلى البلاد ، والأمم التى أظلتها الراية العباسية .

ولقد كان الإدريسى سباقا لعصره فى اعتماد المنهج العلمى المتقدم فى تحقيق كتابه عن جغرافيا العالم الذى استغرق وضعه خمسة عشرعاما وقد مرت عملية وضع خارطة العالم الجغرافى على يد الإدريسى بأربع مراحل أساسية :

**المرحلة الأولى :**

كانت وضع لوح الترسيم الذى اتخذه أساسا لتثبيت الأماكن والبلدان والأنهار والبحار عليه بحسب معادلة خطوط الطول والعرض مستخدما فى ذلك أدوات تقنية أساسية فى هذا المجال من البيكا إلى الإسطرلاب إلى الصفيحة وغيرها من أدوات القياس الجغرافى والفلكى .

**المرحلة الثانية :**

من أعمال الإدريسى كانت الأهم والأخطر ربما فى تاريخ الحضارة والعلوم

البشرية، فقد عمد الإدريسى هنا وبعد إتمام رسم خارطة الأرض المسطحة إلى نقل هذه الخارطة إلى كرة فضية ، مع مافى ذلك من صعوبات بالغة فى تقنيات النقل وتصغير الأبعاد .

ويصف الإدريسى نفسه فى كتابه ( نزهة المشتاق ) هذه الكرة الأرضية والفضية التى صنعها ، والتى تعتبر أهم كرة أرضية فى التاريخ فيقول : كانت من الفضة الخالصة ، ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل فى كل منها فئة مائة درهم واثنا عشر ، فلما كملت نقشنا فيهاصور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وخلجانها وبحارها، ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها .

**المرحلة الثالثة:**

من أعمال الإدريسى الجغرافية بعد رسمه خارطة العالم ثم صنع الكرة الأرضية الفضية كان الشروع فى تحرير مسودة لكتابه الموسوعى العظيم (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ) والذى جاء بمثابة استكمال تفسيرى للخارطة والكرة ، وكذلك بمثابة مصدر ومرجع تبريرى لهما فى آن معا .

ثم انتقل الإدريسى إلى المرحلة الرابعة من أعماله وهى رسم خرائط تفصيلية فرعية جعلها بمثابة ملحق بكتاب نزهة المشتاق .

وبذلك اكتملت أعمال الإدريسى وأعطى العالم ، وليس لصقلية فقط أو العرب فقط ، مرجعا علميا موسوعيا كاملا متكاملا استحق عليه ثناء التاريخ .

وقد ظلت الأمم الأوربية تعتمد كتابه مرجعا أساسيا لها فى علومها الجغرافية حتى تباشير عصر النهضة بعد قرون ، وترجموه إلى العديد من لغاتهم ووضعوه وصاحبه فى أسمى المراتب .

فإذا أردنا أن نقدم ثبتا سريعا لتراث الإسلام فى أولياته كان لنا أن نقول :

اللغة :( كتاب العين ) ، ( لسان العرب ) لابن منظور (٢٠) مجلداً ، ( المحكم ) لابن سيده ، ( الصحاح ) للجوهرى ، ( القاموس المحيط ) للفيروز آبادى ، ( الجمهرة ) لابن دريد .

الفكر : ( إحياء علوم الدين ) للغزالى .

التصوف : ( الرسالة القشيرية ) .

الفقه : ( الرسالة ) للشافعى .

الحديث : ( المسند) لأحمد بن حنبل ، ( الموطأ ) للإمام مالك .

السيرة : (سيرة ابن هشام ) .

التاريخ : ( فتوح مصر) لابن عبدالحكم .

الجغرافيا : ( مسالك الأبصار ) لابن فضل الله العمرى .

الأدب : (نهاية الأرب ) للنويرى (٣٠ ) مجلداً ، ( صبح الأعشى ) للقلقشندى .

دوائرالمعارف : ( مفتاح العلوم ) للسكاكى ، ( طبقات العلوم ) الأسيوردى .

التراجم : ( معجم الأدباء ) .

العلوم : (مفردات الأدوية والأغذية ) لابن البيطار ، ( عجائب المخلوقات ) للقزوينى .

فلسفة التاريخ : (مقدمة ابن خلدون ) ، ( مروج الذهب ومعادن الجوهر ) للمسعودى .

وهؤلاء كتبوا فى مقارنات الأديان :

كتب فى هذا الباب فى القديم ابن تيمية والغزالى وابن حزم وابن القيم .

الجاحظ : فى كتابه ( الردعلى النصارى ) .

على زين الطبرى : فى ( ذم أخلاق أهل الكتاب ) .

ابن حزم:( الفصل فى الملل والنحل ).

الغزالى : ( الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل ) .

ابن تيمية : ( الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ) .

وفى العصر الحديث كتب كثيرون فى مقدمتهم : رحمة الله الهندى ، ومحمد عبده ـ ( الإسلام والنصرانية فى العلم والمدنية ) هذا الكتاب المظلوم الذى زيفه طاهر الطناحى ، وعاطف العراقى ـ وأبو زهرة ، وأحمد شلبى وآخرون .

## التراث الأصيل والتراث الزائف

فى مواجهة هذه المحاولة الجديدة للتآمر على عقيدة الإسلام ومنهجه وتراثه ، والتى تتخفى وراء مظاهر الشعر والبيان والفنون الأدبية والتاريخ بهدف تدمير القاعدة الأساسية للفكر الإسلامى القائم على مصدريه الأساسين - القرآن والسنة - والمتصل بمناهج العلوم وأبرزها : المنهج العلمى فى التحقيق التاريخى - الرواية والدراية - المستمد من تحقيق الحديث النبوى والذى شمل من بعد مجموعة العلوم الإنسانية والتجريبية .

هذا القرآن والسنة ومايتصل بهما من تراث أصيل يقوم على أساس مفهوم أهل السنة والجماعة هو الركيزة الحقيقية لإعادة بناء الأمة الإسلامية على مفهوم الإسلام الصحيح بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع وهو الخطر الماثل أمام القوى الأجنبية - غربية ويهودية وماركسية - الذى ظلت هذه القوى تحاربه وتزيفه ، وتخدع أهله أكثر من قرن ونصف من الزمان ، من خلال جعل قانون نابليون بديلا عن الشريعة الإسلامية ، ومن خلال تعليم دنلوب ومن خلال عمليات التبشير الغربى التى قادها زويمر ومن بعده فى محاولة ( التغريب ) هذه الأمة المؤمنة بالله تبارك وتعالى خالقا ورازقا ، وإخراجها من جوهر مفهومها ، فلما أن انكشفت الأستار وتبين فساد المؤامرة ، وعاد المسلمون إلى منهجهم فى جولة جديدة هى الصحوة الإسلامية كان لابد من تدبير مؤامرات جديدة لعل أخطرها اليوم هى مؤامرة هدم التراث الأصيل وإعلاء التراث الزائف .

ويجرى اليوم تنفيذ هذه المؤامرة عن طريق مجموعة جديدة من الأدعياء ، يعملون فى حقل بعيد تماماً عن موضع الخطر والشبه ، جماعة من الشعوبيين والماركسيين الحاقدين الذين تدثروا بدثار البحث فى التراث الإسلامى ، حيث لايثير عملهم المحاذير التى قد تعلق بالعاملين فى حقل الفكر السياسى أو الاجتماعى سواء من طريق الليبرالية أو الماركسية وهم فى الأساس يرفضون التراث الأصيل ، ويتهمونه بالجمود والضعف، ويعنون بتراث المتآمرين على الإسلام وأهله من دعاة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود والإشراق ، وإحياء تراث المجوسية والبوذية والغنوصية ، وتضمين الشعر الحر والقصص تلك الأساطير لإذاعتها وإعطائها مكانة الأصل الغائب المهجور ، على النحو الذى نراه ، فمثلا فيما يسمونه إحياء التراث بمقاييس الهدم والتدمير من خروج على الأسلوب العربى الأصيل ، ومن هدم لقيم البلاغة العربية وأصولها ، وتغليب جانب الفلكلور الذى

يمثل طفولة البشرية على البيان العربى الأصيل فى محاولة لإعطاء الفن القصصى حرية غير محسوبة تحت اسم حرية الإبداع ، وحرية الإبداع هذه التى يتشدقون بها هى اسم مضلل لما قام به الزنادقة فى القديم ، وحاولوا به تحطيم أصالة البيان العربى والأسلوب القرآنى ، وهى اليوم تمثل محاولة أشد خطورة عندما يزيفون النصوص التاريخية فى محاولة إيجاد صورة فنية مضطربة لاتقيم وزنا للقيم الأخلاقية والإنسانية ، وتذهب بعيدا فى الكشف والإباحة وتدمير الثوابت على النحو الذى تجده فى محاولات القصة الماجنة ، التى تتخذ من دعوى حرية الإبداع منطلقا لتقديم إباحيات جديدة تحت صور قديمة من التاريخ .

إن هذه الرسالة ـ رسالة القلم ـ أمانة ومسؤولية ، ليست للأهواء والمتاع الرخيص ، وقد حذرنا الإسلام من التفريط فى حماية هذا القلم من الهدف الذاتى أو المطمع القريب وأنه موضع حساب شديد ، ولن يستطيع هذا الهدف الغرير أن يحقق شيئا لأنه معارض للفطرة ولقوانين اللغة والفكر والأدب ، وسوف تتحطم هذه الدعوة كما تحطمت من قبل دعوات جبران خليل جبران ويوسف الخال ولويس عوض وأدونيس وصلاح عبد الصبور .

إن إحياء التراث الزائف والمسموم ومحاولة منحه الحياة مرة أخرى ، من خلال قصة أو قصيدة ، لن يحقق شيئا إلا أن يضع أصحاب هذه الدعوات فى خانة الزنادقة والشعوبيين ، ولن يستطيع أن يبلغ هذا العمل شيئا فى النفس المسلمة التى عرفت بلاغة القرآن الكريم ، وبيان الرسول ﷺ ، وماحمل التراث الإسلامى من عطاء ثر يملأ النفوس إيمانا وتشع منه أضواء الهدى والضياء .

إنهم يركزون الحملة على التراث الأصيل ، ويدعون إلى التراث الزائف الذى كتبه الشعوبيون والباطنية وخلفاء المجوس والهلينية والغنوصية ، ومن حقنا أن نكشف أوراقهم ونفضح دخائلهم فى مواجهة شاملة ، ترمى إلى تحديد الفوارق بين التراث الأصيل والتراث الزائف .

ركزت الحملة على التراث فى محاولتين :

**الأولى :**

تزييفه والتشكيك فيه أواتهامه بالقصوروالضعف والتخلف وعدم الحاجة إليه ،

بحجة تخطى الزمن له وإثارة جو من الكراهية والاحتقار له بين أهله ، فى نفس الوقت الذى يعلى فيه من شأن تراث الوثنية اليونانية والرومانية والفرعونية وتزيين تراث الغرب وإبرازه بصورة الريادة والبطولة .

**الثانية:**

إحياء الجوانب الزائفة والمضطربة والفاسدة من التراث على النحو الذى عرف فى تراث التصوف الفلسفى والفكر الباطنى ، ولقد ركز الاستشراق على الجوانب المضطربة، وأعلى بها وجعلها فى الصدارة فقد عمد إلى إحياء التراث الفلسفى اليونانى الذى ترجم فى القرنين الثانى والثالث بعد أن نقله المسلمون ، وكشفوا زيفه وأعلنوا براءة الفكر الإسلامى المستمد من التوحيد الخالص منه ، فأعادوه مرة أخرى وركزوا على مجموعة من الكتابات التراثية المسمومة فأذاعوا بها وجعلوها مصادر للأبحاث والأطروحات ، وعلى رأسها ألف ليلة وليلة والأغانى ، وكتابات ابن عربى وابن سبعين والحلاج فى التصوف الفلسفى ، وماكتبه الفارابى وابن سينا فى الفلسفة .

وهكذا نجد أن الباحثين العصريين التغريبيين للتراث اليوم يولون وجوههم شطر هذه الجوانب المضيئة ويحيونها ويهتمون بها ، ويوجهون الباحثين إلى إحيائها ، ومن هنا كانت أطروحات الماركسيين حول المزدكية والبابكية والقرامطة والزنج وغيرهم من الفرق الباطنية تحت اسم أصحاب دعوة العدل والحرية.

ولم يتوقف أمر الباحثين فى التراث عند هذا الحد ،بل هم يذهبون إلى تدمير مقومات ودعائم تفسير القرآن الكريم ؛ فيها جمون الشعر الجاهلى ، ويدعون أنه منتحل ، وذلك لأنه قاعدة فهم اللغة العربية التى جاء القرآن مطابقا لها، وقد توسع البعض فى هذا فدعا إلى هدم مناهج اللغة وخاصة البلاغة ، واستقطاب مناهج اللغات الغربية دون تقدير للفوارق العميقة بين اللغات التى نشأت حديثا من عاميات اللاتينية واليونانية ، وذلك على النحو الذى احتضنه الشيخ أمين الخولى ، ولعل أخطر مايحاول الاستشراق والغزو الفكرى استغلاله فى هدم اللغة العربية ماذهب إليه فى دعوى الحداثة، ومايتصل بها من نظرية البنيوية وغيرها من النظريات التى ترمى إلى القضاء على الجذور الثوابت للغة العربية ، فى محاولة لهدم قوانين النظم العربى، وذلك بالدعوة إلى أساليب مدمرة تستوحى آثار الفلسفة اليونانية القديمة فى شعر شعراء ذلك العصر: بشار وأبى نواس

دعاهم فى محاولة لإحياء الفكر الباطنى ، والقضاء على التيارالأصيل : تيار أهل السنة والجماعة .

وهكذا يصيب التغريب اللغة والتاريخ وتفسير القرآن من خلال دعوى عريضة هى أن كل علوم العربية تأثرت بالفكر اليونانى واعتمدت عليه دعوى باطلة مذمومة، فقد نشأت هذه العلوم وتشكلت أساساً قبل ترجمة الفلسفة اليونانية على أرجح الأقوال ، وأن الفكر اليونانى حين ترجم استهجنه المسلمون وقاوموه وكشفوا زيفه ، وكان الإمامان الغزالى وابن تيمية فى مقدمة هؤلاء الذين بينوا الفوارق العميقة بينه وبين المفهوم الإسلامى القائم على التوحيد الخالص ، كما بين الإمام ابن تيمية أن للقرآن منطق مختلف عن منطق أرسطو والفكراليونانى القائم على علم الأصنام وعلى مفهوم عبودية الإسلام على قول الربعى بن عامر : جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار. كذلك فى أمر التصوف الفلسفى فقد كشف أهل السنة والجماعة أن هذه المصطلحات التى نقلها ابن عربى والحلاج وابن سبعين والسهروردى وغيرهم من الفكر اليونانى ومن الأفلاطونية والإشراقية لايقرها الإسلام ولايعترف بها ، ومن هنا فإن إعادة البحث عنها على أنها جزء من التراث الإسلامى وإحيائها هى محاولة مضللة يجب الكشف عنها .

أما التراث الفلسفى فهو جزء من التراث الزائف جملة وتفصيلا ، فإن المسلمين لم يعتبروه من أساس فكرهم ، وقد وضح أن الفلسفة الإسلامية الحقة قد بدأت بكتاب (الرسالة ) للإمام الشافعى الذى قعد القواعد للفكرالإسلامى أما أن يعتبر البعض رسائل إخوان الصفا مرجعا للتراث السياسى الإسلامى ، فهذه دعوى باطلة منقوضة ، ذلك أن رسائل إخوان الصفا قد تأكد أنها من تراث الباطنية المجوسية ، والقرامطة وغيرهم فهى مرفوضة تماماً .

لقدآن الأوان أن يتحدد الموقف تماما بين التراث الأصيل والتراث الزائف ، وقد حان وقت القول بأن خدعة التغريبيين بإعلان شأن التراث الزائف والالتفاف حوله والاهتمام به ومحاولة جعله أساساً وفرضه على الدراسات الجامعية والثقافية هذه الخدعة لن تستمر طويلا .

فالمثقف المسلم يعرف الآن حدود البدعة المضللة التى يراد إشاعتها للقضاء على

الأصالة الحقيقية ، هذه البدعة الضالة التى تتمثل فى دعوة عريضة كاذبة بأن التراث الإسلامى أو الفكر الإسلامى فى عصر التكوين قد اعتمد على مترجمات الفلسفة اليونانية ، فهذا الادعاء لم يعد يصدقه أحد ، لأن كل الدلائل تكشف الآن عن أنه لايمثل إلا مغالطة خطيرة ، فقد اكتمل مفهوم الإسلام قبل أن يختار النبى محمداً ﷺ الرفيق الأعلى ، وأن الفكر الإسلامى قد تشكل قبل ترجمة الفلسفة اليونانية وأنه ماكادت الفلسفة اليونانية تترجم وتكتشف سمومها ، حتى هب علماء المسلمين لمقاومتها وإبرازفسادها ولطالما أشار الباحثون المسلمون إلى أن هناك فوارق عميقة بين التراث الغربى والتراث الإسلامى ، هذه الفوارق مدعاة لاختلاف النظرة والتعامل مع التراث . فالتراث الغربى هو فى جملته تراث بشرى من ناحية ، وتراث وثنى من ناحية أخرى ، والجانب الدينى المرتبط بأصول من وحى السماء قليل جدا ، مغيب فى داخل الركام العريض المختلط بين أصوله وحواشيه وبين عصوره المختلفة وهو فى غالبه تراث أساطير ليس لها جذور ثابتة أو أصول أصيلة ، ومن هنا ، فقد عامله الغربيون على هذا النحو ، حتى كتبهم المقدسة عندما تكشفت حولها ظاهرة الفكر البشرى بدأ النقاد والباحثون ينظرون إليها على أنها نص إنسانى يجوز نقده وتدوينه فى مسرحيات وقصص وقصائد شعرية دون أن تحوط من تغييره أو تحوله بعد الإضافة والحذف .

أما التراث الإسلامى فيختلف اختلافا واسعاً ، فالجزء الأكبر منه وهوالميراث يتمثل فى القرآن والسنة ، والقرآن نص موثق محفوظ لم يعتوره أى تغيير، وكذلك السنة ، فقد كان أهلها والقائمون عليها هم الذين أنشأوا المنهج العلمى لدراسة النص ومعرفة رجاله وهو المنهج الذى اصطنعه المؤرخون من بعد وقام عليه المنهج العلمى الغربى .أما القسم الآخر الذى كتبه علماء المسلمين ، فقد كان استمداداً من النص القرآنى والسنة يجرى كله فى مجرى تفسير وتوضيح وبناء وتطوير لكل ما يتصل بعلوم الفقه والسياسة والاجتماع والنفس والأخلاق والتربية ، ومن هنا اختلفت النظرة إلى التراث بين الفكر الغربى والفكر الإسلامى ويجب أن تختلف فأصوله ليست موضع شك ولم يدخلها فكر بشرى ، أما تفسيراته وإضافاته فإنها قامت على أصول أصيلة محكمة ، ولم يبق بعد ذلك إلا هذا التراث الزائف الذى كتبه المجوس والباطنية والشعوبيون من تلك الفرق الزائفة التى كانت ترمى بكتاباتها إلى هدم المجتمع الإسلامى والتشكيك فى القيم

الإسلامية والتى واجهها أهل السنة والجماعة منذ اليوم الأول بالرد على أضاليلها وكشف زيوفها ونقض دعاواها الباطلة.

وقد حاولت المدرسة العلمانية المضللة منذ اليوم الأول أن تجدد تراث الوثنية اليونانية والفكر الباطنى القديم وإحياء كتبه بعد أن اندثرت فدعا طه حسين وجماعة إلى اتخاذ كتاب (الأغانى ) مرجعاً أساسيا لدراسة المجتمع الإسلامى وهو على مابه من تصور زائف للقرن الأول ، والثانى الهجرى ، وخاصة فيما يتصل بالخلفاء فى عصر أمته وبنى العباس ، واتجه تلاميذهم إلى الهجوم على أساسيات الفكر الإسلامى ، فكتب فريد رفاعى عن عصر المأمون ــ المأمون الذى دعا إلى فرية خلق القرآن وحشد لها الحشود ـ وكتب زكى مبارك عن الغزالى الذى حطم الفلسفة اليونانية ، وكشف زيف دعاواها ـ وإن كان قد اعتذر عن ذلك فيما بعد ـ وكتب أحمد أمين ( ضحى الإسلام ) عن المعتزلة ووصفهم بأنهم حكماء الإسلام ، وأحيا طه حسين فى كتابه ( هامش السيرة ) الأساطير التى دحضها مؤرخوالسيرة النبوية بدعوى إنشاء « ميثولوجيا إسلامية » كما أحيا كثيرون تراث التصوف الفلسفى والفكر الباطنى ، فكتبواعن الحلاج وابن عربى وابن سبعين والسهروردى ، وكتب غيرهم عن ابن سينا والفارابى ، وكتب غيرهم عن القرامطة والمزدكية والبابكية .

هذا فضلا عن ترجمة كثير من الأساطير اليونانية القديمة التى رفضها مترجموالمسلمين فى القرن الثالث ، وبذلك انفسح المجال فى العصر الحديث إلى توسيع دائرة التراث الزائف وخاصة التراث اليونانى القديم ، وكان ذلك من المتناقضات الشديدة الخطر ، إذ إن أصحاب الدعوة إلى التنكر للتراث الإسلامى القريب المتصل بنا فى الأربعة عشر قرناً الأخيرة ، هم أنفسهم الذين يدعون إلى إحياء تراث اليونان والرومان وفارس والفراعنة السابق لذلك والذى انقطعت الصلة بيننا وبينه . ولكن قوى ذات نفوذ كبيركانت وراء هذه الموجة وهى التى مكنت لتدريس اليونانية واللاتينية فى الجامعات المصرية ، بينما حالت من ناحية أخرى دون حفظ القرآن الكريم فى الأزهر ، والدعوة إلى تطوير اللغة العربية والتنكر لأساسياتها فى النحو والبلاغة .

إن دعاة التغريب ينطلقون فى صوت واحد وبكلمة واحدة : هى إزاحة التراث الإسلامى عن الطريق لتكون لهم الحرية فى تشكيل الحاضر العربى وحاضر المسلمين

تشكيلا مضطربا وفق مايشاؤون ، ولو فعلنا لكان أمرنا هو أمر رجل فقد شهادة الميلاد ، فهو مقطوع عن أهله وأصله ونسبه ، أشبه بأن يكون لقيطا .

ترى ذلك واضحا فى كتابات زكى نجيب محمود وفؤاد زكريا ولويس عوض بدعوتنا إلى أن ننحى هذا القديم ، هذا الماضى ، هذا التاريخ ، هذا التراث ، ونوجه أبصارنا نحو الغرب الذى يمثل الآن عظمة الحضارة والسيطرة ، والعملاق الذى ينظرون إليه فى إعجاب وخضوع من خلال نفسية ضعيفة منهارة ؛ لأنها تتنكر لتراثها وماضيها وماتحمله من منهج ربانى رفيع يجعلها هى الأعلى فى الدنيا والآخرة ، هكذا تتشكل الثقافة الحديثة اليوم فى مختلف صورها : من خلال الصحف والمذياع والمدرسة والشارع.

إنهم يريدون اقتلاع ماضينا ووجودنا ،وانتمائنا إلى الآباء ،بعد أن ارتبط هذا الانتماء أربعة عشر قرناً متصلاً ، وتشكل من خلال القرآن والسنة ، وتراث عريض خصب يحمل كل عوامل السمو والكرامة والسماحة والفضل والخير والوفاء . فإذا كانوا يفعلون ذلك مخدوعين بما فعل الغرب بتراثه ، فإن الأمر يختلف عن موقفنا من تراثنا ، وعن موقف الغرب من تراثه ، وإذا كانوا يفعلون ذلك خادعين فنحن - المسلمين ـ لاننخدع ونعرف أبعاد الأمور .

# الفهـرس



رقم الإيداع : ٤١٧٨ / ١٩٩٤م

I.S.B.N : 977-255-105-5

مطابع الوفاء ـ المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت: ٣٤٢٧٢١/٣٥٦٢٢٠/٣٥٦٢٣٠
ص.ب: ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨